

متن المؤلفات العربية في الأوبئة : قائمة أولية مع تعاليق مختصرة

أ.د. محمد أبطوي

2020-06-10

1. تمهيد

يشكل النظر في عبر الماضي بخصوص الأوبئة وتأثيراتها على المجتمعات، والتأمل في الكيفيات التي واجه بها أسلافنا الجوائح، مهمة نافعة للبحث الأكاديمي في الظروف الاستثنائية التي يعيشها العالم بسبب الوباء المُستشري، من أجل دراسة ما وصلنا من أخبار وتآليف وشهادات لاستخلاص دروس بليغة تفيدنا في الحاضر وربما في المستقبل. وهذا ما يحفزنا لتخصيص هذه المقالة لعرض قائمة مفضلة بالمؤلفات التي خصصها الأطباء والفقهاء والمؤرخون للأوبئة وسبل التحرز منها والتعامل معها. تشكل هذه المؤلفات، التي لم ينشر ويدرس منه إلا القليل، جزءاً لا يتجزأ من تاريخ الطب العربي ومن التاريخ الثقافي والاجتماعي للبلاد العربية والإسلامية، وتمثل مادةً ثرائيةً عربيةً، طبية وعلمية وتاريخية، تتميز بالثراء والتنوع.

يمكن أن تشكل معطيات القائمة الموائية موضوع بحوث متعددة تتوخى تحقيق الأعمال غير المنشورة وتحليل مضامينها، بالاستناد إلى مقارنة مزدوجة تعتمد منهجية تاريخ العلوم والطب وأسلوب التاريخ الثقافي.

=src

<https://www.youtube.com/watch?v=sX-yOnMPicw&t=2558s>

سنلاحظ أن أغلب المؤلفات المذكورة تخص وباء الطاعون، الذي كان هو الوباء الأعظم إلى حدود القرن التاسع عشر، ومثالا للأوبئة التي اجتاحت الإنسانية كالجدري والكسبة والسل والكوليرا والملاريا وغيرها. يقول بهذا الصد الأديب والمؤرخ المغربي والأندلسي القاضي عياض (ت. 544هـ/1149م): "الوباء عموم الأمراض، فسميت طاعونا لسببها بها في الهلاك، وإلا فكل طاعون وباء وليس كل وباء طاعونا... ويدل على ذلك أن وباء الشام الذي وقع في

عمواس إنما كان طاعونا.

2. المؤلفات العربية الأولى في الوباء والاحتراز منه: 200-300هـ

نجد في التّأليف الطبي العربي في القرن الثالث الهجري ذكرا عابرا للوباء لا يتعدّى بضع صفحات، في مؤلفات طبيّة مفضّلة تحيط بمختلف مظاهر المرض والمداواة، كما هو الأمر في كتاب الدّخيرة في الطب لثابت بن قُرّة الحرّاني (ت. 288هـ/901م) وكتاب المنصوري في الطبّ لمحمد بن زكريّا الرّازي (ت. 313هـ/925م). يخصص الرّازي ثلاث صفحات في كتابه الموسوعي لوصف الوباء والاحتراز منه وسرد بعض النّصائح لتجنب العدوى وحُسن علاج المرض.

يقول: "إن الوباء يحدث في آخر الصيف وفي آخر الخريف. فإذا كانت في | الصيف أمطار كثيرة ودام فيه الغيم بالليل والنهار وكثر فيه هبوب الجنوب وكان الهواء فيه راكداً ومدّاً غير متحرّك وهو مع ذلك جنوبي كدِر، فليحذر اللحم و الشراب والحلواء والفاكهة الحلوة الرطبة والحمام و الاغتسال بالماء الحارّ. و

ليكثر من الخَلّ =src

وما يعمل منه

ومن ربوب

الفاكهة الحامضة.

كربّ الحصرم

والريباس والرّمان

والنّفاح والسّماق

وحمض الأترج.

ويكثر فيه من

شرب السكنجبين

الحامض. وإن لم

يكن بدّ من أكل

اللحم فليأكل

الدراريج والفراريج

ولحوم الجداء

والعجاجيل، متخذة بالخَلّ أو بماء الحصرم والسّماق ونحوها، والقريص والهلام والمصوص. وإن رأى في البدن أدنى حركة للدّم، أخرج على المكان ولم يدافع به، ويلزم المجالس الباردة التي أبوابها وكّواها نحو الشّمال، فإنه بهذا التدبير يمكن أن يتخلص في هذه الحال من أحوال الهواء من الجُدري و الحصبة والطاعون والخراجات الرديئة والحميات المطبقة. وليحرص الصبيان والفتيان وأصحاب الأبدان الخصبية الحمر الألوان في هذه الحالة أكثر من غيرهم. وإذا كان في آخر الصيف حرّ شديد، وكان الخريف شديد اليبس كثير الغبار وأبطأ المطر

والبرد، فينبغي أن يبرد المجلس ويرطب بالخيوش ورش الماء، ويلزم الدعة والراحة.

"وليحذر التعب والجماع. وليغتسل بالماء البارد ويشرب ماء الثلج، ويأخذ بالفدأة السويق بالسكر والماء المبرد بالثلج ويحذر الأغذية المسخنة والشراب إلا بالماء الكثير البارد. وليكثر من أكل القثاء والخيار والقرع والفرفين ونحوها من الأغذية المبردة. ويحذر التعرض للشمس والصوم والمدافعة بالجوع والعطش، ويلزم القيلولة في الأماكن الباردة والأغذية التي ذكرناها. وأن يشرب ماء الشعير في هذه الحالة كل يوم، فإنه نافع وخاصة لأصحاب المزاج الحار اليابس، فإنهم أحوج الناس إلى هذا التدبير، وبه | يمكن أن يتخلصوا في هذه الحالة من الحميات المحرقة الخبيثة. وأما إذا كثرت البثور واليرقان وكانت تهب الرياح، فيمرض في هذا الزمان بعقبها خلق كثير من الناس والبهائم ويظهر بالليل في الهواء شعاعات ويسرع فيهم الموت إلى من يمرض من هؤلاء، وكان المرض يضيق بأنفاسهم وتبخّر أفواههم ويجدون غمًا وكربًا ولهيبًا شديدًا وعطشًا، وتبرد أطرافهم ويقينون ويختلفون أشياء سمجة مختلفة. فإنه ينبغي أن يجتنب الثمار والبقول الكائنة في ذلك الوقت وشرب الماء الظاهر على وجه الأرض، ويلزم البيوت ويهرب من الهواء البارد ويرش البيت في كل يوم بماء وخل

ممزوجين. وإن =src

كان في الهواء

مع ذلك شبيه ربح

عفن وبتن،

فليتبخر بالصندل

والكافور ويرش

الماء ورد، ويرسل

على باب البيت

ستر قد بلّ بماء

ورد، ويجعل

الأغذية من الخل

والعدس

والسماق

والقريص والهلام

والحصرم. ويتجرع

بالخل والماء ممزوجين ويهجر الشراب. وقد ينفع في هذه الحال أن يؤخذ كل يوم قرص من أقراص الكافور، ويشرب الماء بالثلج، ويفتسل بالماء البارد. وقد ذكر رجل من قدماء الأطباء أنه إن أخذ من الصبر جزأين ومن الزعفران والمزّ من كل واحد جزء، وسقي منه في أيام الوباء كل يوم اثنا عشر قيراطا مع أوقية شراب ممزوج انتفع به جدا. وأنه لم ير أحداً ممن شرب هذا الدواء في إبان الوباء إلا وسلم. وذكر جالينوس أن شرب الطين الأرمني بالخل والماء ينفع في هذه

الحال جدًّا، وأن تريباق الأفاعي ينفع جدًّا. ومما ينفع أن يتبخر به في حال عفن الهواء، القسط والكندر والميعة والعود والصندل والمسك والكافور والمرّ.

"وربما كثرت الخوانيق في الربيع في بعض السنين وكانت مع ذلك | رديئة قاتلة، فينبغي في هذه الحال أن يتقدم بالفصد وحجامة الساق وإسهال البطن. ويتفرغ كل يوم وليلة بالماء ورد الذي نقع فيه السماق وربّ التوت وربّ الجوز. وربما كثرت في شتوة ما السكتة والفالج ونحوهما من الأمراض. فينبغي أن يتعاهد في مثل هذه السنة النفض المذكور في هذه الأبواب والتفرغ والتعطس، ومرّخ الجسد بالأدهان المذكورة هناك وتقليل الغذاء وتلطيفه.

يشارك في خاصية المعالجة المختصرة للوباء الموسوعات الطبية الكبرى في المرحلة الكلاسيكية للطب الإسلامي، من الحاوي في الطب للرازي، والقانون في الطب لابن سينا (ت. 427هـ/1037م)، إلى التيسير في مداواة والتدبير لابن زهر (557هـ/1162م) والشامل في الصناعة الطبية لابن النفيس (687هـ/1288م). غير أن الاهتمام الحصري بالوباء كان موضوع بعض المؤلفات التي شدّت عن القاعدة في تلك المرحلة المبكّرة، وهي:

1. ثلاث رسائل لم يعثر عليها فُقِدَ للفيلسوف يعقوب بن إسحاق الكِندي (ت. نحو 260هـ/874م): رسالة في الأبخرة المُصلحة للجوّ من الوباء
2. الكِندي، إيضاح العلّة في السّمائم القاتلة السّمائية وهو القول المطلق في الوباء.
3. الكِندي، رسالة في الأدوية المشفية من الروائح المؤذية.
4. كتاب الطّواعين لابن أبي الدنيا (ت. 281هـ): مفقود أو لم يُعثر عليه.
5. كتاب في الإعداء لقسطا بن لوقا البَغْلَبَكِي (ت. نحو 300هـ/912م): وصلتنا بعض نُسخها ونُشرت وتُرجمت إلى الألمانية.
6. قسطا بن لوقا البَغْلَبَكِي، مقالة في الوباء وأسبابه.
7. ولا يفوتنا ذكر ترجمة تُنين بن إسحق العبادي (ت. نحو 260هـ/874م) لشرح جالينوس للمقالة الثانية من كتاب أبقراط المسمّى إفيذيميا. لنلاحظ تعريب المصطلح الإغريقي للوباء (إفيذيميا $\epsilon\pi\iota\delta\eta\mu\iota\omicron\nu$) في أواسط القرن الثالث الهجري، وتعويضه بالمصطلح العربي في رسائل الكِندي وقسطا بن لوقا.

3. وفرة مثيرة

للمؤلفات في

الأوبئة والجوائح:

1300-300هـ

تُفاجئ الباحث

ابتداءً من بداية

القرن الرابع وفترة

في المؤلفات تثير

الانتباه وتدعو

إلى التساؤل. قد

يكون هذا الإنتاج

الكثيف دليلاً على

الاهتمام بالأوبئة

وعلى السعي للإحاطة بأبعادها الطبية والاجتماعية والفقهيّة والتاريخية، بفعل تفشي هوجاته الحاصدة للأرواح في العصر العباسي في ذلك الزمن وبعده. كتب تلك المؤلفات الوفيرة العدد أطباء مثل ابن سينا والتّميمي وابن القف وابن الجزار، وأدباء ومؤرخين وفقهاء، من نحو 300هـ إلى 1300هـ على الأقل، وشمل مداها الجغرافي مناحي العالم الإسلامي شرقاً وغرباً.

8. محمد بن زكريا الرازي (ت. 313هـ)، السبب في قتل ریح السموم أكثر

الحيوان.

9. الرازي، الرسالة الوبائية.

10. الرازي، رسالة الجُدري والحُصبة: تتضمن أوائل الإشارات إلى الطبيعة

الوبائية المعدية للأمراض.

11. الرازي، السبب في قتل ریح السموم لأكثر الحيوان.

12. ابن الجزار القيرواني (ت. 369هـ): كتاب في نعت الأسباب المولدة للوباء

في مصر وطريق الحيلة في ذلك وعلاج ما يُتخوّف منه: مفقود ومنه نُقول عند

التّميمي وعلي بن رضوان.

13. التّميمي المقدسي (ت. 390هـ)، مادّة البقاء في إصلاح فساد الهواء

والنّكّر من صرّ الأوباء: كتبه عام 370هـ.

14. الخطيب بن بُبائة (ت. 374هـ)، خطبة في ذكر الموت والوباء.

4. وفرة مجهولة المؤلف وزمن التّأليف

كما نعتُر في فهارس المكتبات على رسائل مجهولة المؤلف أو لم يُعرّف سنة تأليفها. وبالتّأكيد، سيؤدّي فحص ودراسة وتحليل محتويات بعض هذه الأعمال

إلى استخراج هوية المؤلف و/أو زمن تأليفها. ويبدو من عناوينها أن معظمها ينتمي إلى مرحلة متأخرة، ربما ابتداءً من القرن التاسع الهجري. وسنكتفي فيما يلي نكتفي بذكر الرسائل التي توجد لها نسخة مخطوطة واجدة أو أكثر، كما نشير إلى أن أغلب هذه المؤلفات أدرجت في فهرس المكتبات التي تمتلك نسخها المخطوطة.

88. رسالة في =src
الطاعون رسالة في
الوباء، رسالة في
الوباء والطاعون:
وصلتنا بهذه
العناوين العاكة
مخطوطات عديدة
لؤلغات يُجهل
مؤلفها وتاريخ
تأليفها تحتفظ بها
المكتبات العربية
(نذكر منها: جامعة
الملك سعود، دار
الكتب المصرية، دار
العلوم بالأزهر)
والتركية (نذكر منها:
مكتبة قونية، عاشر
أفندي، نور عثمانية)
وبعض المكتبات
الأخرى مثل المكتبة
البريطانية وغيرها.

تضم قائمة المؤلفات مئة وأحد وعشرين عنواناً، ويضاف إليها رسائل أخرى لم نذكرها. يُفترض أن يفوق عدد المؤلفات بين 250هـ/864م و1318هـ/1900م مئة وخمسون كتاب ورسالة، من مختلف الأحجام ومن مختلف الأنواع الأدبية، نثرا ونظما. وينبغي أن تضاف أيضا الشهادات المستخرجة من مؤلفات التاريخ العام وكتب التاريخ الثقافي، وهي عديدة جدا، وبعضها طويل ومفصل، مثل وصف المقريري للطاعون مثل شهادة المؤرخ المعروف أحمد بن علي المقريري (ت. 845هـ) المفصلة في حالة الطاعون الذي أصاب البلاد المصرية وبلاد الشام في أواسط القرن الثامن الهجري وكتن له أثر مدقّر على البنية الديموغرافية للمنطقة العربية كافة.

نختم هذه المقالة بإيراد شهادة قصيرة لابن أبي أصيبعة (ت. 668هـ)، مؤرخ الطب الشهير في كتابه عيون الأنباء في طبقات الأطباء، حين ذكر ضمن نواجر الطبيب علي ابن رضوان المصري:

"ونقلت من خط المختار بن الحسن بن بطلان أن الغلاء عرض بمصر في سنة خمس وأربعين وأربعمائة قال: ونقص النيل في السنة التي تليها وتزايد الغلاء وتبعه وباء عظيم واشتد. وعظم في سنة سبع وأربعين وأربعمائة. وذكى أن السلطان كفّن من ماله ثمانين ألف نفس، وأنه فقد ثمانمائة قائد. وحصل للسلطان من المواريث مالٌ جزيلاً".

تستحق مؤلفات الطب والتاريخ العربي المخصصة للأوبئة وأخبارها وسبل التدرّج منها أن نخصص لها ما تستحقّه من اهتمام أكاديمي، لكي تحلّل وتُدْرَس مضامينها لتثري معرفتنا التاريخية، خاصة على ضوء التنبيه المؤلم الذي عرّضنا إليه مرض فيروس كورونا في الأشهر الأخيرة، فأنبأنا بضرورة الاهتمام بأدبيات الأوبئة لأنها قد تُفيدنا في مواجهة كوارث قادمة.

• [المقال كاملاً](#) بما يحتويه من فهارس وشروح وقوائم، تجدونها في ملف [PDF](#) المرفق في أعلى الصفحة.

=src

البريد الإلكتروني للكاتب: mohamed.abattouy@dohainstitute.org